مجلة العاصمة

المجلد الثالث، ٢٠١١

مجلة مسجلة لدى المسجل للجرائد في الهند (RNI) برقم KERARA00011
ومجلة معتمدة لدى جامعة كيرلا، الهند

قسم العربية، كلية الجامعة، ترونتبرم، كيرالا، الهند، ٦٩٥٠٣٤

الهوية وأدب المنفى

د/ عبد الحسين شعبان

مفكر وباحث أكاديمي عراقي، واستشاري في عدد من المنظمات والدوريات الثقافية والاعلامية، له ما يزيد عن ٥٠ مؤلفاً في قضايا الفكر والقانون والسياسة والإسلام والصراع العربي الإسرائيلي والمجتمع المدني وحقوق الإنسان والثقافة والأدب

باستعادة رسالة الجاحظ "الحنين إلى الأوطان"[١]، وهو الجد الأقدم للمثقفين العرب والمسلمين، ندرك حقيقة المعاناة الإنسانية للمهاجرين أو المهجرين والمنفيين في عالمنا المعاصر، سواءً ما يتعلق بالمكان والذاكرة من جهة، ومن جهة ثانية ما يتعلق بالهوية والثقافة. وإذا كانت العولمة اليوم قد جعلت عالمنا الشاسع والمترامي الأطراف، قرية صغيرة، فإنها بهذا المعنى أعطت فيه للمنفى ولثقافة المهاجر أهمية كبيرة، لم يكن يتمتع بها من قبل، ولم يعد بالأمكان في ظل ثورة الاتصالات والمواصلات وتكنولوجيا المعلومات والطفرة الرقمية "الديجيتل" منع التواصل والتفاعل والتشارك والتداخل بين الوطن والمنفى، وبين المهاجر وثقافته الأصلية، وبين الثقافات والحضارات المختلفة والمتنوّعة، وصار من غير المجدي للأنظمة حجب المعلومة والرأي والقصيدة والرواية والمقطوعة الموسيقية والكتاب واللوحة، لأنها تصل بسرعة الضوء أو أسرع منه في الكثير من الأحيان. لكن ثمة شيء يبقى حيث يعيش المهاجر خارج بيئته وثقافته ولغته، وتلك مسألة تحتاج إلى وقفة جدية، لاسيما ونحن نتحدث عن الثقافة العربية في المهجر.

في كتابه " تأملات المنفيين"[٢] يعرّف الصحافي البريطاني جون سمبسون المنفي بالقول "هو الشخص الذي لا ينسجم مع مجتمعه"، ثم يعدد ست مجموعات من المنفيين لأسباب سياسية أو دينية أو قومية أو قانونية "ملاحقة المحاكم المدنية" أو نفسية أو اقتصادية أو غير ذلك. ولعل كتاب سمبسون يذكّرنا برسالة الجاحظ، خصوصاً بتدفق المجموعات والكتل البشرية الهائلة اليوم والهروب الجماعي بسبب الحروب الخارجية والنزاعات الداخلية المسلحة والخوف من الإضطهاد الإثني والديني والمذهبي، بأبعاده الإنسانية: السياسية والاجتماعية والثقافية. ولكن في المهجر هناك حياة يحاول المهاجر أن يعيشها، بل ويصنعها على طريقته ومثلما يريد، خصوصاً إذا تمتع بالحرية المفقودة، لاسيما سعيه للحفاظ على لغته وثقافته، حتى وإن اكتسب لغة أخرى وكتب فيها وتعمّق في الثقافة المستقبلة، وشملت الهجرات الأولى (نهاية القرن التاسع عشر) جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وأمين الريحاني وآخرين، وكان المنفى آنذاك أقرب إلى الاختيار حتى وإن كان اضطراراً، وكان يومها محدوداً على عوائل وصلات وعلاقات ومصالح أغلبها سببه اقتصادي، باستثناءات محدودة، مثل هجرة الشاعر أحمد الصافي النجفي إلى إيران بعد فشل ثورة العشرين في العراق (١٩٢٠)، وبقائه فيها ٨ سنوات وترجمته الشهيرة لرباعيات عمر الخيام، ومن ثم انتقاله إلى سوريا ولبنان[٣].

لكن هجرة الخمسينيات والستينيات وما بعدها كانت أقرب إلى الهجرات الجماعية، لاسيما الهجرة الفلسطينية القسرية بعد قيام إسرائيل في العام ١٩٤٨ وإجلائها مئات الآلاف من السكان الأصليين لعرب فلسطين وانتقال أقسام منهم إلى أوروبا وأمريكا، وفي السبعينيات وما بعدها شهدت لبنان هجرة واسعة، شملت مبدعين ومثقفين، وإعلاميين، بسبب الحرب الأهلية، وكانت الهجرة العراقية الواسعة قد بدأت على خمسة مراحل: الأولى بعد ثورة ١٤ يوليو العام ١٩٥٨ وفي مطلع

١ رسالة الجاحظ رقم ٣٨٧، الجزء الثاني، تحقيق طه الحاجري، دار الكتب العلمية.

٢ شعبان عبد الحسين – المنفى والهوية والحنين إلى الأوطان، موقع الحوار المتمدن الالكتروني، ٢٠٠٨/٧/١٥

٣ شعبان، عبد الحسين- سعد صالح: الضوء والظل- الوسطية والفرصة الضائعة، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠٠٩، ص ١٩٢-١٩٤.

الستينيات وخصوصاً، بعد انقلاب العام ١٩٦٣ وهي هجرة محدودة جداً ولأسباب سياسية في الغالب، والهجرة الثانية وهي في نهاية السبعينيات، حيث شملت عشرات الآلاف، بمن فيهم بضعة مئات من خيرة المثقفين العراقيين بسبب حملة القمع التي تعاظمت في تلك الفترة، لكن هذه الأرقام تضاعفت على نحو كبير بعد الهجرة الثالثة خلال الحرب العراقية-الإيرانية ١٩٨٠-١٩٨٨، ثم بدأت هجرة رابعة كبرى بعد غزو الكويت وحرب قوات التحالف وبالأخص عند فرض نظام العقوبات الدولي بين أعوام ١٩٩٠-٢٠٠٣. أما الهجرة الخامسة فهي التي بدأت بعد احتلال العراق واصطبغت بالاصطفافات الطائفية والاستقطابات المذهبية، وشملت مئات الآلاف من العراقيين من كل الألوان والانحدارات في الخارج والداخل، لاسيما بعد العام ٢٠٠٦.

وكانت هجرات سورية قد شملت عوائل ومجموعات سكانية محدودة، وقد كان للجيل الثاني الذي ولد في المهاجر دوراً كبيراً في التلاقح الثقافي خصوصاً بحمل الثقافتين، وازدادت بعد العام ١٩٦٠، وشملت أعداد من المسيحيين الذين تناقص عددهم في جميع البلدان العربية، وخصوصاً في فلسطين حيث كانوا يشكّلون نحو ٢٠% من السكان، فإنهم اليوم لا يزيدون عن ١.٥%، وكذلك في سوريا حيث كان عددهم يزيد عن ١٦%، فإنهم اليوم لا يشكّلون أكثر من ١٠%، كما شهد لبنان هجرة واسعة وخصوصاً للمسيحيين حيث بلغت حسب بعض التقديرات نحو ٧٠٠ ألف مسيحي، وفي العراق تناقص عددهم خلال الخمسين سنة الماضية، ولم يعودوا يشكّلون أكثر من ٢% من السكان بعد أن كانت نسبتهم أعلى بكثير، وكانت المسيحية العربية بشكل خاص والمسيحية الشرقية بشكل قد لعبت دوراً كبيراً في حركة النهضة العربية وفي تجديد الفكر العربي منذ القرن التاسع عشر والقرن العشرين. وكان المفكر الأمريكي الياباني الأصل فرانسيس فوكوياما قد حذر من تعاظم مشكلة المهاجرين واللاجئين، في عالم ما بعد "نهاية التاريخ وخاتم البشر"[١] الذي ابتدعه في أواخر الثمانينيات معلنا سيادة الليبرالية، كنظام سياسي واقتصادي على المستوى العالمي، معتبراً مشكلة تدفق المهاجرين من بلدان الجنوب "الفقير" إلى بلدان الشمال "الغني" إحدى التحديات التي تواجه العالم المعاصر إضافة إلى النفط والإرهاب. وقد أضاف المفكر الأمريكي صمويل هنتنغتون في كتابه "صراع الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي"[٢] بعداً جديداً على الفكرة، مفاده أن العدو المحتمل والتحدي الأساسي لعالم ما بعد انهيار الأنظمة الشيوعية في بلدان شرق أوروبا والاتحاد السوفياتي سيكون "الإسلام" الذي يشكل تهديداً خطيراً لظفر الليبرالية على المستوى العالمي، على أساس نظريته المعروفة بصدام الحضارات وصراع الثقافات.

ومع تعاظم مشكلة وإشكالية اللاجئين والمهاجرين والمنفيين تبرز مسألة البحث عن هوية، ومسألة الاندماج وتفرعاتها، ومسألة الخصوصية الثقافية والقومية والدينية. وتظهر هذه القضية على نحو واضح وربما صارخ بالنسبة للجيل الثاني أحياناً، وقبل ذلك تبدأ المشكلة مع شبكات ووسائل الانتقال المشروعة وغير المشروعة، حيث يتعرّض المهاجرون واللاجئون إلى طائفة من أنواع الابتزاز وإلى عقبات وعواقب قد تكون خطيرة وقد تؤدي بالبعض إلى فقدان جزء من العائلة، ثم يبدأ بمواجهة المشكلة الأكبر مع البلدان المضيفة (المستقبلة)، خصوصاً في موضوع الهوية والاندماج وقد تكون على نحو محموم فيه الكثير من المفارقات. لعلي هنا أتذكّر رواية الكاتب الفلسطيني غسان كنفاني "رجال في الشمس" [٣] في الحديث "عن رحلة النفي أو الهجرة أو اللجوء". كيف قدر لهؤلاء الرجال الذين بقوا في الصهريج ينتظرون موتهم ببطء ويأس ودون حتى حراك، فبدلاً من فتح باب الفرج، انفتح لهم باب القبر بكل صمته وظلامه.

١ فوكوياما، فرانسيس- نهاية التاريخ وخاتم البشر، مركز الأهرام ، القاهرة ، ١٩٩٩.

٢ هنتنغتون، صموئيل، صراع الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، الدار الجماهيرية، القاهرة، ١٩٩٦.

٣ كنفاني، غسان- رجال في الشمس، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٦٣.

وبإيحاء كنفاني الذي كان منولوجه الداخلي عالي النبرة، يخاطب هؤلاء الرجال لماذا لا تصرخوا؟ لماذا لا تدقوا كي يسمعكم من بالخارج؟ كان خوفهم في اكتشافهم من جانب سلطات الحدود العراقية- الكويتية، وهم يجتازون مفرق سفوان، هو الذي دعاهم إلى الصمت، الإذعان، وإلى الموت انتحاراً إذا جاز التعبير. إن صمتهم وعدم حراكهم سببه الخوف من ضياع فرصتهم في الهجرة، فبعد النفي الأول من الوطن كان البحث عن منفى جديد مؤقت ولو للعمل ولم يخطر ببالهم أنهم يرحلون هذه المرة إلى المجهول، إلى العالم الآخر. إن مأساة الفلسطيني التي صوّرها غسان كنفاني ببراعة تتكرر يومياً وبصورة دراماتيكية مرعبة أحياناً، ويكاد لا يمر أسبوع أو شهر إلا ونسمع موتاً جماعياً، غرقاً أو اختناقاً أو ضياعاً، فالكوارث الطبيعية وحراس الحدود والشواطئ يقفون بالمرصاد، والمشهد يستمر: قوارب وبواخر وحافلات وقطارات .. مهرّبون وسماسرة، ضحايا ومنفيون، سجون واحتجاز... وقصص لا تنتهي عن بلدان الرعب والحروب والجوع وهدر الكرامة.

ولم تكن مأساة دوفر التي ذاع صيتها (العام ٢٠٠٠) سوى واحدة من الشهادات اليومية على الموت البطيء لضحايا مجهولين وانكسار آدميات وإذلال بشر. هكذا تتحول الجنان الموعودة إلى كوابيس، وحراس الحدود والمطارات والموانئ يقفون سدًّا منيعاً أمام (زحف الجراد) على الأرض الخضراء، وتعرض شاشات التلفاز صوراً بشعة ولكنها للأسف أصبحت مألوفة، وقد لا تثير الاهتمام والتعاطف المطلوب، عن جثث لفظها البحر وأخرى تجمدت وضحايا مطاردات وإصابات عبر الحدود والأسلاك والموانئ والحواجز.. ومعها برزت أصوات جديدة تندد بالهجرة وتطالب بالتشدد إزاءها. مع الاستقرار المؤقت والاندماج الجزئي في المجتمع الجديد، تبدأ مشكلات المهاجرين والمنفيين الحقيقية وتطل هواجس الروائي الألماني أريش ماريا ريمارك قائمة في (ليلة لشبونة)[١] فالمهاجر كثير الشك، منغلق في مجموعات، يثير ريبة أهل البلاد الأصليين أحياناً، ويتعامل مع العالم الخارجي في الكثير من الأحيان بمنظار أمني، ويعاني من فقدان هويته الأصلية، وعدم قدرته على التكيّف مع الهوية الجديدة.

أما ازدواجية الجنسية فيما بعد فإنها إحدى تعبيرات ازدواجية المواطنة أحياناً وهذه تثير نوعاً ملتبساً من ازدواجية الهوية. لعل أهمية كتاب أدوارد سعيد "خارج المكان"[٢] لا تتأتى فقط من أسلوبه المشوق والممتع أو من السرد الدرامي وليس بسبب مضمونه أيضاً. ولكن كونه يمثّل أو يجسّد إحدى شهادات العصر المهمة عن حدث ما زال يؤرق الضمير الإنساني. فقد استطاع إدوارد سعيد وهو أحد أبرز المثقفين العرب الموسوعيين في القرن العشرين أن يخاطب العقل (الآخر) ويتحدث عن تجربة اقتلاع شعب من أرضه ورميه خارج المكان في محاولة لمحو ذاكرته ومصادرة تاريخه وإقصاء مستقبله. لعل البروفسور سعيد كان الأخطر بالنسبة للحركة الصهيونية، حين فهمت الأخيرة ماذا يعني كتابه الأول "الاستشراق"[٣] وهو ما حدا ببعض قادتها لتحسس استمرارهم ووجودهم في فلسطين عند قراءة هذا الكتاب الذي صدر عام ١٩٧٨. إن كتاب "خارج المكان" هو محاولة لإحياء الذاكرة، لإيقادها، لإبقائها حية، والبحث في التفاصيل الصغيرة، التي تشكل عوالمها مهمة أساسية يستعيدها المنفيون واللاجئون. "خارج المكان" هو بحث في الهوية، رغم العواصف، والتنقلات والهجرات والثقافات، فالهوية ظلّت تشكل الهاجس الذي يطلّ برأسه ويلوح بصورة عفوية ودون استحضار مسبق. وقد سبق لأمين معلوف الروائي اللبناني العالمي الذي منح أعلى وسام فرنسي مؤخراً أن تحدث عن

١ ريمارك، اريش ماريا – ليلة لشبونة، ترجمة الدكتورة ليلى نعيم، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨١.

٢ سعيد، ادوارد- خارج المكان- ترجمة فواز طرابلسي، دار الاداب ، بيروت ، ٢٠٠٠.

٣ سعيد ، ادوارد- الاستشراق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ترجمة محمد عناني ، بيروت، ١٩٧٨.

موضوع الهوية في كتابة " الهويات القاتلة" وقد مثل هو شخصياً هذا البعد المتحرك في الهوية بحمله الثقافتين العربية والفرنسية وقدرته في أن يكون جسراً للتواصل [١].

الهوية: بعيدا عن التبشير

في كتابه "موسيقى الحوت الأزرق"[٢] يناقش أدونيس فكرة الهوية ويستهل حديثه بالعبارة القرآنية التي تضيء بقِدَمِها نفسه، حداثتنا نفسها على حد تعبيره، وأعني بها التعارف، أي الحركة بين الانفصال والاتصال في آن، من خلال "روية الذات، خارج الأهواء" وخاصة الآيديولوجية، ويمكن أن نضيف الدينية والقومية وغيرها، بمعايشة الآخر داخل حركته العقلية ذاتها، في لغته وابداعاته وحياته اليومية. وبعد أن يستعرض أدونيس آركيولوجية الغياب المعرفي العربي على خارطة المعرفة الإنسانية، وهو ما أشارت إليه على نحو صارخ تقارير التنمية البشرية في العقد الأخير، لاسيما شحّة المعارف ونقص الحريات واستمرار الموقف السلبي من حقوق الانسان وبخاصة حقوق المرأة والأقليات وغيرها، يطرح سؤالاً حول سبل الخروج من هذا الغياب، ويسأل أيضاً ولِمَ هذا الغياب؟ لاسيما بتمثّل ذلك نقدياً ومعرفياً، من خلال معرفة الآخر بمعرفة ذاتنا معرفة حقيقية، ولعل الخطوة الاولى التي ظل يركّز عليها في كتابه الممتع والعميق، هو كيف يمكن أن يصغي بعضنا إلى بعض!؟[٣].

ولعل هذه الرؤية تستند إلى احلال الفكر النقدي التساؤلي، محل الفكر التبشيري- الدعائي، حيث يصبح الوصول إلى الحقيقة التي هي على طول الخط تاريخية ونسبية، وصولاً يشارك فيها الجميع رغم تبايناتهم إلى درجة التناقض أحياناً، وهذا يعمّق الخروج إلى فضاء الإنسان بوصفه أولاً، إنساناً، ويدفع الذات إلى ابتكار أشكال جديدة لفهم الآخر ثانياً، وثالثاً يكشف لنا أن الهوية ليست معطى جاهزاً ونهائياً، وانما هي تحمل عناصر بعضها متحركة ومتحوّلة على الصعيد الفردي والعام، وهو ما يجب اكماله واستكماله دائماً في إطار منفتح بقبول التفاعل مع الآخر. وإذا كانت ثمت تحولات تجري على اهوية على صعيد المكان- الوطن، فالأمر سيكون أكثر عرضة للتغيير بفعل المنفى وعامل الزمن وتأثير الغربة.

هل الهوية جوهر قائم بذاته، لا يتغيّر أو يتحوّل؟ أم هي علاقة تجمعها مواصفات بحيث تكوّن معناها وشكلها؟ وبالتالي لا بدّ من تنميتها وتعزيزها وتفعيلها في إطار المشترك الإنساني، الأمر الذي يتخطّى بعض المفاهيم السائدة، ذات المسلّمات السرمدية السكونية لدرجة التقوقع، وينطلق إلى خارج الأنساق والاصطفافات الحتمية، من خلال قراءات مفتوحة تأخذ التطور بنظر الاعتبار عناصر تفعيل وتعزيز وتحوّل في الهويات الخاصة والعامة. بهذا المعنى لا يكون اختلاف الهويات أمر مفتعل حتى داخل الوطن الواحد فما بالك في بلدان المنافي وتعدد منابع الثقافات وتنوّع الحضارات واختلاف التراث واللغة. وإذا كان ثمة تكوينات مختلفة دينية أو اثنية أو لغوية أو سلالية، ناهيكم اختلاف الهويات الخاصة للفرد عن غيره وعن الجماعة البشرية فالأمر سيكون تحصيل حاصل بما يجري من تغييرات على هوية المنفي وثقافته. ولعل هناك علاقة بين الشكل والمعنى التي تتكون منها الهويات الفرعية – الجزئية الخاصة وبين الهويات الجماعية العامة ذات المشتركات التي تتلاقى عندها الهويات الفرعية للجماعات والافراد، حيث تكون الهوية العامة أشبه بإطار قابل للتنوّع والتعددية، جامعاً لخصوصيات في نسق عام موحّد، ولكنه متعدد وليس آحادي، فمن جهة يمثل هوية جامعة ومن جهة أخرى يؤلف

١ معلوف، أمين- الهويات القاتلة، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٤.

٢ أدونيس – موسيقى الحوت الأزرق (الهوية، الكتابة، العنف)، دار الاداب، ط١، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٥-٨ (الاستهلال).

٣ قارن: تقارير التنمية الانسانية العربية، منذ صدور التقرير الأول، العام ٢٠٠٢ وحتى تقرير العام ٢٠٠٩ وهو بعنوان : تحديات الأمن الانساني في البلدان العربية، البرنامج الانمائي للأمم المتحدة (المكتب الاقليمي للدول العربية)، بيروت، ٢٠٠٩، وقد شارك الباحث بأوراق خلفية في عدد من التقارير السنوية، إضافة إلى مساهمات مع اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا والباسفيك (الاسكوا).

هويات متعددة ذات طبيعة خاصة بتكوينات متميزة أما دينياً أو لغوياً أو اثنياً او غير ذلك، فالشكل ليس مسألة تقنية، حسب أدونيس وانما هو مسألة رؤية.

ولعل الحديث عن هويات فرعية، أو خصوصيات قومية أو دينية، لأقليات أو تكوينات، يستفز أحياناً بعض الاتجاهات المتعصبة دينياً أو قومياً فهي لا ترى في مجتمعاتنا سوى هوية واحدة إسلامية أو إسلاموية حسب تفسيراتها وقومية أو قوموية حسب أصولها العرقية ونمط تفكيرها واصطفافات طبقية كادحيّة حسب آيديولوجياتها الماركسية أو الماركسيوية، أما الحديث عن حقوق وواجبات ومواطنة كاملة ومساواة تامة وحق الجميع في المشاركة وتولي المناصب العليا دون تمييز بما فيها حقوق المرأة وحقوق متساوية للأديان والقوميات، فهي تصبح في الواقع العملي ليس أكثر من مؤامرة ضد الأمة والدين، تقف خلفها جهات امبريالية- استكبارية تضمر الشرور للمجتمعات العربية – الاسلامية، وبهذا المعنى لم تسلم حقوق بعض المبدعين في التميّز والاستقلالية والتفكير الحر، واعتبرت بمثابة انشقاق وخروج على الجماعة، أما في معارضة تفكيرها، فالامر قد يستحق العقاب والتحريم والتجريم. ولعل مثل هذه الممارسات، لاسيما بحق الجماعات القومية أو الدينية دفعها للانغلاق وضيق الأفق القومي، وبخاصة إذا تعرّضت للاضطهاد الطويل الأمد وشعرت بالتهديد لهويتها، وهو الأمر الذي كان أحد نقاط ضعف الدولة القطرية العربية تاريخياً، خصوصاً في مرحلة ما بعد الاستقلالات.

وما زال الموقف من الأقليات القومية والدينية قاصراً في الكثير من الأحيان وحتى الاعتراف ببعض الحقوق يأتي كمنّة أو مكرمة أو هبة أو حسنة، حيث تسود تصوّرات مخطوءة عنها، بل ان الكثير من السائد الثقافي يعتبرها، خصماً أو "عدوا" محتملاً أو أن ولاءها هشاً وقلقاً وسرعان ما يتحول إلى الخارج، دون أن نعي أن هضم حقوقها، تارة باسم مصلحة الاسلام وأخرى مصلحة العروبة والوحدة وأحياناً بزعم الدفاع عن مصلحة الكادحين، والقوى العلمانية والمدنية وقيم النضال المشترك وغير ذلك، هو السبب الأساسي في مشكلة الاقليات وليس نقص ولائها أو خروجها على الهوية الوطنية العامة التي تصبح لا معنى لها بسبب معاناتها، وبسبب نقص المواطنة الفادح والنظر إلى أفرادها كرعايا لا مواطنين من الدرجة الأدنى، وإنْ كان المواطنون ككل مهضومو الحقوق، فإن العبء الذي سيقع على كاهل الاقليات سيكون مركباً ومزدوجاً ومعاناتها كذلك.[١] ولعل هذا الموقف من الاقليات ودلالاته الثقافية لا يقوّم الانسان بوصفه انساناً، له حقوق وواجبات معروفة في الدولة العصرية، بحقوق المواطنة، وإنما يقيّمه بوصفه "انتماء"، أي هو يحوّل الانسان إلى سياسي برأس اثني أو قومي أو ديني أو مذهبي، وهكذا يتحوّل الإنساني إلى سياسي، وهذا الأخير إلى حقل من الحروب تبعاً للمصالح السياسية والمادية، فتهيمن الاهواء والنزعات على العقول وتظهر الوحشية عند الممارسة، ويغيب كل ما هو انساني، واحياناً كثيرة تستخدم القوى الخارجية هذه الثغرات والعيوب والنظرة الاستعلائية القاصرة للنفاذ منها لتشتيت الهوية الجامعة والعزف على الهويات الخاصة لدرجة التعارض والتصارع مع المشترك الانساني. والأمر لا يقتصر على البلدان المتخلفة بل إنه يشمل أحياناً بلداناً متقدمة، ففرنسا بلد الحريات يريد أن يصهر هوية المهاجرين وثقافتهم وذلك بوضع قوانين تتعلق بفرض خلع الحجاب أو وضع عقبات تمييزية فيما يتعلق بالعمل أو غيره. ولنعد إلى ما يسمى بالهوية الوطنية، ولنتأمل الحرب الأهلية اللبنانية، فبعد دماء غزيرة وخراب استمر ١٥ عاماً، غسل الجميع أيديهم وتعانقوا وكأن شيئاً لم يكن وظلّت الهويات الصغرى طاغية، والهوية الجامعة هشّة، قلقة، مقصاة، وبعد الاحتلال الامريكي للعراق، اندلع العنف والارهاب على نحو لم يسبق له مثيل ليحصد أرواح عشرات ومئات الآلاف من العراقيين من جميع الطوائف والقوميات والاتجاهات، تحت شعارات التفوق الطائفي والاثني أحياناً وهو ما كانت له بعض الأسباب في التاريخ لاسيما المعاصر، وخاصة الاتجاهات التمييزية السائدة، على الرغم من أن المحاصصة والتقاسم

١ شعبان، استحقاقات المواطنة العضوية الحق والمشاركة والهوية،(ورقة قدّمها الى) منتدى الفكر العربي، الرباط ، ٢١-٢٣ (ابريل) ٢٠٠٨.

المذهبي كانتا تشكلان أساساً قام عليه مجلس الحكم الانتقالي وما بعده، ولكن ظل جميع الفرقاء والفاعلين السياسيين من جميع الاتجاهات، يعلنون أن لا علاقة لهم بالطائفية والمذهبية، بل هم يستنكرونها ويعلنون البراءة منها، لكنهم عند اقتسام المقاعد والوظائف يتشبثون بها، ويحاولون الظهور بمظهر المعبّر وربما الوحيد عنها، دون تخويل من أحد.

ولعل ذلك هو الذي دفع الباحث لاقتراح مشروع لتحريم الطائفية وتعزيز المواطنة في العراق [١] وهو إذ يعرضه على جميع الفرقاء، يأمل أن يثير نقاشاً وحواراً واسعاً لدى الجميع، آملاً أن تتبناه القوى السياسية الوطنية وفاعليات المجتمع المدني، التي لا تؤمن بالطائفية وتدعو إلى تحريمها ومحاسبة كل من يمارسها أو يدعو ويروّج لها أو يتستر عليها، واعتماد مبادئ المساواة التامة والمواطنة الكاملة، فذلك هو السبيل لتعزيز الهوية الوطنية العراقية وتأمين حقوق الهويات الفرعية القومية والدينية وغيرها. إن الفكر اليقيني المطلق، هو فكر امحائي لا يؤمن بالآخر، ويريد إلغاء الفروق داخل المجتمع بكياناته ومكوّناته وأفراده وسجن التعددية وإقصاء الخصوصيات، والأكثر من ذلك يريد إلغاء تاريخ مكوّنات بحيث يلعب فيها مثل كرة عمياء تتدحرج في طريق أعمى وبأيد عمياء. [٢]

ان التعصب والعصبية هما اتجاهان إلغائيان لمن لا يتعصّب لهما، ولعل جدل الهويات يكشف ان اختيار الصراع بدل التعايش، والصدام بدل الحلول الانسانية، سيكون ضاراً وخطيراً على الهويات الكبرى مثل الهويات الصغرى وهذه الأخيرة إن لم يتم احترامها وتأمين حقوقها المتساوية ستكون عنصر ضعف كبير ويتسع باستمرار على مستوى الهوية والدولة العراقية، إذ لا بدّ من اتباع طريق المعرفة وشراكة الناس في المسؤولية والبحث عن الحقيقة وعن المعنى، سواءً عبر الهويات الفرعية- الجزئية أو من خلال الهويات الأوسع والأكبر، ولكن بانسجام مع الهوية العامة التي لا تستقيم كينونتها وحقوقها الاّ باحترام الهويات الفرعية وخصوصيتها على مستوى الجماعات أو الأفراد [٣]. أتذكر القاضي يوجين قطران وهو قاضي في بريطانيا فلسطيني كان قد مضى على وجوده فيها آنذاك نحو خمسة عقود من الزمان، كيف تحدث في ندوة عن اللاجنسية في الوطن العربي، أقامها مركز أكسفورد لدراسات اللاجئين والمنظمة العربية لحقوق الإنسان ومركز شمل اللاجئين والشتات الفلسطيني في رام الله ٢٠٠٠، عن تجربته المثيرة للنفي وازدواجية الهوية والولاء والانتماء والمواطنة والجنسية. كيف أراد أن يحضر حفل زفاف أخته في السودان في أواسط الخمسينيات، بجواز مرور بريطاني، وكيف كان الحصول على الفيزا من أصعب القضايا. تحدث إشكاليات عانى منها "قطران" مثلما عانى منها المهاجرون والمنفيون قبل اكتساب جنسية البلد المضيف والذي يهمنا هنا المواطنة والهوية والذاكرة.

إن صورة حياة المنفيين الألمان خلال الحرب العالمية الثانية وقبلهم المهاجرون الروس في العشرينيات، وفي أواخر الأربعينيات والخمسينيات المهاجرون الإيرانيون واليونانيون وفي السبعينيات الشيليون وبشكل خاص في التسعينيات، وفي السبعينيات أكراد العراق وفي أواخرها العراقيون بشكل عام، هي صورة الهواجس الدائمة والهموم والشكوك والانكسارات، هذه كلها تمثل حياة المهاجرين في كل مكان: البحث عن وثيقة، باسبورت، مكان آمن، الابتعاد عن الاحتكاك برجالات السلطة ومؤسساتهم، تحاشي المشكوك بأمرهم، الدعايات والإشاعات المبثوثة في كل مكان. إن كتاب إدواد سعيد يمثل العلاقة المركبة والمزدوجة بين الوطن والمنفى. لقد حاول سعيد الاستعاضة أحياناً عن فلسطين بمصر ولبنان، لكن فلسطين ظلّت الفضاء الذي تسبح في أجوائه الذكريات الأولى ومراتع الصبا والنشأة.

١ مشروع قانون تحريم الطائفية وتعزيز المواطنة في العراق، الذي سبق أن اقترحه الباحث وأدرجه في كتابه " جدل الهويات في العراق- المواطنة والدولة" وأجرى عليها تعديلات لاحقة بعد مناقشته من جانب نخبة متميزة من رجال القانون والسياسة العراقيين.

٢ ادونيس- موسيقى الحوت الازرق، مصدر سابق، ص ٢١٢.

٣ المصدر السابق.

"خارج المكان" مثلت جسراً بين ماضي لا يمكن أن ينسى وبين حاضر لا يمكن أن يدوم، وبينهما صور وانعكاسات وأحداث ووقائع ومؤامرات وآمال وحروب، ولكن الذاكرة تظل قائمة وكأنها تعيش واقعا هو استمرار بحثها عن هوية ومكان وأرض ووطن مسلوب، لعل إدوارد سعيد لم يكن بعيداً عن جبرا إبراهيم جبرا حين تحدث في "البئر الأولى"[١] عن نشأة الطفل والتشكل الأول لذاكرته وما استقر فيها من تفاصيل ولم يكن من الممكن محوها أو التجاوز عنها فقد حفرت في قاع الذاكرة وهي ما لا يمكن إهماله. في حديث خاص مع الشاعر الكبير الجواهري، سألته عن المنفى: ماذا كان هناك يا أبا فرات: فردوس الحرية أم زمهرير الغربة؟؟ بعد فترة تأمّل سحب نفساً عميقاً من سيجارته فأجاب، الإثنان معاً أي والله الاثنان معاً! والجواهري الذي عاش ثلث حياته البيولوجية ونصف حياته الإبداعية في المنفى، كان قد تشكّل واكتمل في الوطن وظلت الهوية التي يبحث عنها تمثل هاجس الحرية التي جعلها تشكل همّا يومياً له، مثل هم الغربة والمنفى والابتعاد عن الوطن[٢] قد يكون الأمر امتيازاً حين نحمل الثقافتين. الثقافة الجديدة للدول المستقبلة (بالكسر) أي الغربية والثقافة القديمة أي العربية – الإسلامية (الوافدة بالنسبة للمجتمع الجديد). لكن هذه الميزة تتحول إلى صراع داخلي أحياناً وربما فقدان البوصلة.

ويتحدث الشاعر الدكتور مصطفى جمال الدين [٣] عن أحد مصادر الثقافة النجفية، فيحدد الثقافة الوافدة التي تتعلق بثقافات الوافدين الذين يأتون للدراسة في جامعة النجف الشهيرة التي مضى على وجودها أكثر من ألف عام وهم من الأتراك والإيرانيون والأفغان والهنود والباكستانيين، إضافة إلى الوافدين من بعض الأقطار العربية. قد تثير المسألة إشكاليات حقيقية ومعاناة فعلية، ثقافية واجتماعية ونفسية بالنسبة للمنفى أو بالنسبة لمجتمعه الجديد، وخاصة للشباب، وإذا دخل الدين عنصراً في الموضوع فإن هناك الكثير من عوامل عدم الاندماج الموضوعية والذاتية قد تدخل على الخط ويزداد الأمر تعقيداً بالنسبة للمرأة في ظل العقلية الشرقية والأبوية "الإسلامية" التقليدية التي تظل تفعل فعلها في حياة المهاجرين والمنفيين لوقت طويل وربما تتجدد بأشكال وأساليب تزيد من التمسك بها على نحو يبدو كثير الغرابة والتعقيد. لم يستطع روائي كبير مثل غائب طعمة فرمان الذي عاش المنفى طيلة أكثر من ثلاثة عقود أن يكتب رواية عن المنفى، ظل هاجسه الوطن، حيث ولد وترعرع وعاش شبابه الأول وظلّت شخصياته ذات ملامح بغدادية حادة أحياناً. لم يتمكن المنفى منه، رغم أنه أعطاه فضاء الحرية. برهان الخطيب الذي عاش في المنفى أكثر من ثلاثة عقود في موسكو ودمشق واستكهولم خصص أعماله الروائية عن الغربة والنفي والبحث عن الهوية، وقد بلورها في روايته الأخيرة " الجنائن المعلّقة"، وهي تصوّر الشتات العراقي في الأعوام الأربعين الأخيرة، وروايته الأخيرة استمرار لرواياته " بابل الفيحاء" و"الجسور الزجاجية" و"ليلة بغدادية" و"حب في موسكو". في سؤال لمجلة "الوطن العربي" [٤] يقول الخطيب: للمهجر أو للمغترب وجهان ظاهر وخفي. الأول مبهرج والثاني كالح، حياة المهجر تكشف لي عن وجه شنيع أحياناً، وهناك صعوبات وضغوط حاولت كسري. ويضيف: أمام التأقلم والذوبان أو الصمود أمام الصعوبات والضغوط ومجابهة احتمال التحطّم... خياري هو المجابهة وتجديد النفس بدلاً من تذويبها أو تحجّرها.

وهنا لا بد من استخدام سلاح الثقافة لتشكّل درعاً واقياً أمام سهام الغربة وتياراتها، فالهرب من فجيعة الوطن لا ينبغي أن يجعلنا نسقط في فجيعة الغربة حسب الخطيب. الثقافة إذن فرصة لتطوير ومعرفة الذات لمواجهة المنفى وتجاوز الكسل بالإبداع. لكن هل يكفي ذلك لكي نتمسّك بالهوية أليس ثمة هم إنساني يتشكل بمعزل عن الإرادة وخاصة للجيل الثاني؟؟

١ جبرا، ابراهيم جبرا –البئر الأولى، دار الكشكول، لندن، ١٩٨٦.

٢ شعبان، عبد الحسين- الجواهري: جدل الشعر والحياة، ط٢، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٨.

٣ جمال الدين، مصطفى – الديوان، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥.

٤ مقابلة مع برهان الخطيب في مجلة الوطن العربي بتاريخ ٢٠٠٠/١١/٢٤

في حوار أداره المنتدى الأورومتوسطي [١] وحضرته نخبة متميزة من المثقفين قال أسامة الشربيني في معرض معالجته لظاهرة الازدواجية: حين أكون في المغرب أشعر بأنني مغربي، وحين أكون في بلجيكا أشعر بأنني بلجيكي. وهنا يثار تساؤلاً مشروعاً: وهل المكان هو الذي يحدد الهوية؟ أم أن الهوية التي تكونت وترسخت واكتسبت تظهر على نحو جلي في بيئتها الحقيقية ، حيث المكان والاستمرار والتفاعل؟ وإذا كان مثل هذا الأمر يواجه النخبة، خصوصاً من تكوّن وترعرع، ثم انتقل ليواصل ويندمج في مجتمع جديد، فالأمر مختلف باختلاف درجة الوعي والنضج والاستعداد للتكيف والاندماج، وبالتالي حمل الثقافتين ومواصلة الاستفادة من النبع الأول، بالقدر الذي تتم فيه الاستفادة من المصادر الجديدة. وإذا أردت أن أتحدث عن تجربتي الشخصية، فإنني كنت أواجه بشكل شبه يومي وعلى مدى ١٠ سنوات حالات تعدّ بالآلاف بخصوص المهاجرين والمنفيين واللاجئين العراقيين والعرب. وكان العراقيون يشكلون أكثر من ٨٠% من هذه الحالات، ناهيكم عن ذلك فقد عشت تجربة المنفى لعقدين كاملين من الزمان، وأن كنت على اتصال مستمر بالوطن وضمن الفسح والمساحات المتاحة لكن الأمر حتى بعد سقوط النظام السابق بدأت معاناة جديدة للعراقيين في الداخل والخارج، وبدأت مرحلة نفي جديدة أو اغتراب من نوع جديد، قوامه نحو مليونين جديدين من المهاجرين في البلدان المجاورة والمنافي البعيدة، ومثلهم في بدايات العام ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ من النازحين بالداخل، لاسيما بضعف الهوية الوطنية العراقية وصعود النزعة الطائفية التي اختفى خلفها العديد من المستفيدين وشجع عليها أمراء الطوائف.

وأختتم هنا ببيتين من شعر الحلاج الذي كان يردده وهو يواجه السيف بعد رحلة نفي طويلة يقول:

طلبتُ المستقرّ بكلّ أرضٍ فلم أر لي بأرض مستقرّا

وذقت من الزمان وذاق منّي وجدتُ مذاقهُ حلواً ومرّا

فقد ولد الحلاج حسب ما يروي المؤرخ الطبري عنه في مدينة البيضاء في اليمن (حسب ابنه أحمد)، وهاجر منها إلى بلدة "تستر" ثم إلى البصرة. ثم رحل إلى بغداد ومنها عاد إلى تستر ثم خراسان، حيث غاب هناك ٥ سنوات مطارداً ومنها إلى "كرمان" وبعدها إلى الأهواز، حيث انتقل إلى البصرة ومنها إلى مكة وعاد إلى البصرة ومن البصرة إلى بغداد، وقد سبقته روايات عن زندقته المزعومة فهجرها إلى حيث واجه حتفه حسبما ورد في كتاب الصحافي والكاتب عبد المنعم الأعسم " الهجرة والتهجير"[٢]. إن هوية الحلاج الرئيسية مثلما هي هوية اللاجئ، الحرية التي يمكن أن تظهر في فضائها ألوان ثقافات وتواصل حضارات وعادات شعوب وبشر. فالحرية إذن هي الشرط الأول للاجئ والمهاجر والمنفي وهي القاعدة التي تؤسس عليها الهوية اللاحقة، الهوية الثقافية ذات البعد الإنساني والتي تمثل المشتركات الإنسانية.

١ وهو الحوار الخاص بالشمال والجنوب، وقد انعقد في مدينة الرباط في شهر تشرين الأول (اكتوبر) العام ٢٠٠٠ وشارك فيه الباحث.

٢ الأعسم، عبد المنعم- الهجرة والتهجير، دار الأماني، دمشق، ٢٠٠٣.